

الفصل الثالث

* في ضرب الأمثال .

الآيات

١ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾
(البقرة : ٢٦)

٢ - ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾
(الرعد : ١٧)

يضرب الله الامثال للناس لان في ضربها زيادة أفهام وتذكير وتصوير للمعاني وإدناء لها من الحس . كما قال الله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾
(الزمر : ٢٩)

والله عز وجل يضرب الامثال . وليس كل الناس يعقلها وفي الناس سفهاء
وجهلاء . ولذا قال الله عز وجل :

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا
الْعَالِمُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٣)

والعالم من يعقل عن الله ويعمل بطاعته ويجتنب سخطه .

أما أهل السفاهة والجهل فترى الأمثال تُضْرَبُ في أخطر القضايا شأنًا وهم
يضحكون ويسخرون ويقولون إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت دون
نظر فيما ضرب المثل له . يشغلون أنفسهم بأمر العنكبوت والذباب ويتركون ما دُعُوا
إليه من عبادة الله وعدم الإشراف به لأن ما دونه لا يخلق ذبابا ومن اتخذ من دونه وليا
فقد ركن الى وَهْنٍ وضياح . فتراهم وهم يحثون على التوجه الى الله والاخلاص له
يعيشون مع الذباب ولا يرتفعون إلى ما دعاهم القرآن الكريم إليه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ ﴾

(البقرة : ٢٦)

عن ابن عباس انه لما نزل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبِ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ . فطعن في
أصنامهم ثم شبه عبادتها ببيت العنكبوت . قالت اليهود : أى قدر للذباب
والعنكبوت حتى يضرب الله المثل بهما فنزلت هذه الآية :

والقول الثاني : ان المنافقين طعنوا في ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد
والبرق في قوله . ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ﴾ .

والقول الثالث : ان هذا الطعن كان من المشركين . قال القفال : الكل محتمل
هاهنا : أمّا اليهود فلانه قيل في آخر الآية . ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين

ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴿١﴾ - وهذه صفة اليهود والخطاب بالوفاء بالعهد فيما بعد إنما هو لبني اسرائيل .

وأما الكفار والمنافقون فقد ذكروا في سورة المدثر : ﴿٢﴾ وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴿٣﴾ الآية . فأما الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون والذين كفروا يحتمل المشركين لأن السورة مكية . فقد جُمع الفريقان هاهنا إذا ثبت هذا فنقول : احتمال الكل ههنا قائم . لان الكافرين والمنافقين واليهود كانوا متوافقين في إيداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مضى من أول السورة الى هذا الموضع ذكر اليهود وذكر المنافقين وذكر المشركين وكلهم من الذين كفروا . ثم قال القفال : وقد يجوز ان ينزل ذلك ابتداء من غير سبب لأن معناه في نفسه مفيد^(١) .
والآية قد شملت كل ما ضرب من مثل في القرآن «مَثَلًا» .

فان «ما» اذا قرنت باسم نكرة أبهتته ابهامًا ما وزادته شبيوعا وبعدا عن الخصوصية . ﴿٤﴾ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴿٥﴾ . «الحق» الثابت الذي لا يسوغ انكاره . ذلك أن ايمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله . وبما يعرفون من حكمته . وقد وهبهم الإيمان نورا في قلوبهم ، وحساسية في أرواحهم ، وتفتحا في مداركهم ، واتصالا بالحكمة الالهية في كل أمر وفي كل قول يجيئهم من عند الله . ﴿٦﴾ وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴿٧﴾ ؟ وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته . المقطوع الصلة بسنة الله وتدييره ، ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقارا ، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرف الرب . يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار ، أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله . هنا يجيئهم الجواب في صورة التهديد والتحذير بما وراء المثل من تقدير وتديير .

﴿٨﴾ يضل به كثيرا، ويهدى به كثيرا، وما يضل به إلا الفاسقين ﴿٩﴾ .

(١) الفخر الرازى .

(٢) في ظلال القرآن .

وعند الاستقصاء ترى الأمثال قد ضربت في أخطر القضايا شأنها في قضية العقيدة وما يتصل بها . ونحن لا نضرب لله الأمثال بل الله هو الذى يضرب لنفسه المثل ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك .

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ٧٤)

فان ضرب المثل فيه تشبيه حال بحال . والله جل وعلا منزه عن الشبه والمثل وهو واحد لا مثل له . وهو وحده الذى يعلم كيف تضرب الامثال له وأنتم لا تعلمون ذلك .

ومن تدبر الامثال وهى تضرب للناس رأى فيها من حسن الارشاد والتوجيه ما يحقق تبصرة الإنسان إلى ما يجب أن يكون وابعاده عما لا يصح أن يكون .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(الحج : ٧٣)

فأى تنبيه أقوى للنفس وأبلغ في صرفها عن التعلق بغير الله من هذا المثل الذى يريها العجز والضعف والهوان - لمن تدعوه من دون الله - فى صور لا تقبل الجدال والخصام . ضعف الطالب والمطلوب . وعجز العابد والمعبود وهان السالب والمسلوب .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا

(العنكبوت : ٤١ - ٤٣)

﴿ الْعَالِمُونَ ﴾

والأمثال تضرب من الله للناس لإحقاق حق وإبطال باطل .

وأهل العلم والايان هم الذين يعلمون أنها الحق فتزيدهم إيماناً وثباتاً . وهي تريمهم ما عليه أهل الكفر من هوان وباطل وخسران وتجعلهم يشاهدونهم - وقد اتخذوا من دون الله أولياء - وهم يأوون الى أوهم البيوت ويركنون الى نسج العنكبوت . بل تريمهم الامثال عجز هؤلاء مع أهتهم عن استنقاذ شيء مما يسلبهم الذباب . وقد اتخذوهم آلهة طلبا للعة وابتغاء النصر . فأزدادوا باتخاذهم ضعفا على ضعف وعجزاً على عجز .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ (مریم : ٨١ ، ٨٢)

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ (يس : ٧٤ ، ٧٥)

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا

أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ (الاعراف : ١٩٧)

والأمثال التي ضربت لبيان قبول الأعمال أوردتها يتضح منها أثر العقيدة في قبول الأعمال أوردتها . فما قام من الأعمال على صدق الايمان والإخلاص لله أثمر وأينع . وما قام على الكفر ورتاء الناس احترق وأحرق أهله والأمثال في الحاليين توضح وتبين وتقرب المعقول من المحسوس .

ففي الأعمال التي قامت على صدق الاخلاص لله تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَلْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَتَأْتَتْ أَكْطَافَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(البقرة : ٢٦٥)

وفي المقابل ترى من أشرك فأحبط عمله أو أنفق فأبطل ما أنفق بمن أو اذى ترى
ثمارة وقد احترقت في وقت الحاجة إليها والعجز عن طلب مثلها :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَأَحْرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴾

(البقرة : ٢٦٦)

وفي الاعمال التي قامت على الاخلاص لله وابتغاء مرضاته نقرأ قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة : ٢٦١)

وفي الأعمال التي قامت على الكفر والشرك بالله نقرأ قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ
الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ
ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

(ابراهيم : ١٨)

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ ۖ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ ۖ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِيرْهَا ۗ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

(النور: ٣٩، ٤٠)

وقد يضرب المثل لبيان حال من يحمل الكتاب ولا يتتبع بها فيأتي المثل مقبحا لفعله بتشبيهه بالحمار الذي يحمل أسفارا .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بُئِسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

(الجمعة: ٥)

وهو مثل لا يضرب لمن فرط من بنى اسرائيل وحدهم بل يصدق على كل من علم ولم يعمل . وجاءته البينات وضل سواء السبيل . وقد يضرب المثل لبيان حال الدنيا وسرعة تقضيها حتى لا يتعلق بها الإنسان تعلق من يرى الإقامة فيها فيرضى بها ويطمئن إليها ويغفل عن آخرته والاستعداد لها .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطُنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا نَّائِلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

(يونس: ٢٤)

قد وقد مما ضرب في القرآن من مثل وكله حق يرشد إلى الحق ويهدي لما هو أقوم .
والحق تُدفع به الشبهات وتُذف الأباطيل ويصفو المعدن الأصيل ويذهب الزبد جفاء
ويبقى ما ينفع الناس .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ
زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ
مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ
جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ ﴾

(الرعد: ١٧)

وفيا ضرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال .

أحدها : انه القرآن ، شبه نزوله من السماء بالماء ، وشبه قلوب العباد بأودية تحمل
منه على قدر اليقين والشك ، والعقل والجهل ، فيستكن فيها ، فينتفع المؤمن بها في
قلبه ، كانتفاع الأرض التي يستقر فيها المطر ، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شكه
وكفره ، فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبد وخبث الحديد لا ينتفع به .

والثاني : انه الحق والباطل ، فالحق شبه بالماء الباقي الصافي والباطل مشبه بالزبد
الذاهب ، فهو وإن علا على الماء فانه سيمحق كذلك الباطل وإن ظهر على الحق في
بعض الأحوال فإن الله سيبطله .

والثالث : انه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر : فمثل المؤمن واعتقاده وعمله كالماء
المنتفع به ومثل الكافر واعتقاده كالزبد^(١) .

وكلام العلماء لا يخرج عن هذه الاقوال الثلاثة التي اجملها ابن الجوزي في تفسيره .

(١) زاد المسير لابن الجوزي .

يقول الامام ابن القيم: «شبه الله الوحي الذى أنزله حياة القلوب والأسباع والأبصار بالماء الذى أنزله حياة الأرض بالنبات. وشبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما عظيما. كواد كبير يسع ماءً كثيراً. وقلب صغير إنما يسع بحسبه، كواد صغير فسالت أودية بقدرها. واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها. وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا. فكذلك الهدى والعلم اذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات، ليقلعها ويذهبها. كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه. فيتكدر بها شاربه، وهى من تمام نفع الدواء. فانه إنما أثارها ليذهب بها. فانه لا يجمعها ولا يشاركها وهكذا يضرب الله الحق والباطل».

ثم ذكر المثل النارى فقال: ﴿وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله﴾. وهو الخبث الذى يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخرجه النار وتميزه، وتفصله من الجوهر الذى ينتفع به، فيرمى وي طرح ويذهب جفاء. وكذلك الشهوات والشبهات يرميها العلم والهدى من قلب المؤمن وي طرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ويستقر في قرار الوادى الماء الصافى الذى يستسقى منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم. كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الايمان الخالص الصافى الذى ينفع صاحبه وينتفع به غيره. ثم قال رحمه الله «ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلها والله الموفق^(١)».

وقال الإمام ابن كثير: اشتملت الآية الكريمة على مثلين مضرابين للحق في ثباته وبقائه والباطل في اضمحلاله وفنائه فقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾. أى مطرا ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أى أخذ كل واحد بحسبه فهذا كبير وسع كثيرا من الماء وهذا صغير فوسع بقدره وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها فمنها ما يسع علما كثيرا ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فاحتمل السيل زبدا رابيا﴾ أى فجاء على وجه الماء الذى سال في هذه الأودية زبد عال عليه هذا مثل. وقوله ﴿وما يوقدون عليه

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم جمع: محمد اويس الندوى، وأمثال القرآن لابن القيم: تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد.

في النار ابتغاء حلية أو متاع ﴿١٠٠﴾. الآية هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أى ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾. أى إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل ولهذا قال: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ أى لا يُنتفعُ به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ولهذا قال: ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾. ثم قال: وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً وهما قوله: ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله﴾ الآية. ثم قال ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾. الآية. وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين (احدهما) قوله: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب﴾ الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود في يوم القيامة فما تريدون؟ فيقولون أى ربنا عطشنا فأسقنا فيقال ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضاً ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أو كظلماتٍ فى بحر لججٍ﴾. الآية. وفي الصحيحين عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» فهذا مثل مائى وقال في الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها - قال - فذلكم

مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها» وأخرجاه في الصبحين أيضا. فهذا مثل نارى^(١).

ونلاحظ أن الأمثال وهى تضرب للناس في الكتاب والسنة تلمس ما يتصل بحياتهم فلا يأتى المثل بعيدا أو غريبا. فالناس يعرفون ما يؤديه الماء في حياتهم وما يكون من شأنه حين ينزل من السماء وحين يصيب أرضا. وما يكون من الأرض في قبولها للماء وإخصابها به أو إمساكها وحفظها له. أو إبانها أن تمسك أو تنبت. يرى الناس ذلك بأعينهم. والمثل يخاطبهم بما يرون ويعرفون ليدركوا كنه الأشياء وحقيقتها ويقفوا على آثارها ونتائجها. فلا تكون المعانى التى يراد بيانها بعيدة عن حسهم أو معزولة عن حياتهم. بل يُرى المعقول في المحسوس وتشاهد العبرة في الآثار والنتائج فلا يغيب معنى عن واقع ولا تتخلف عبرة عن منظور مشاهد فتنهض الحياة بمبناها ومعناها ولا تتخلف فضائلها عن عطائها بل تصان بمعالي الصفات ومكارم الأخلاق. ويتحقق الاعتدال في فطرة الانسان بين مطالب جسده وفضائل روحه وبين العمل لديناه وابتغاء آخرته. وبذا يتربى الانسان التربية المثلى التى لا تلبس فيها المفاهيم أو تنحرف المقاصد أو تخفى العواقب والنتائج بل تظل التبصرة والذكرى تعمل عملها في مأكله ومشربه وليله ونهاره وحله وترحاله. تظل التبصرة والذكرى ملازمة له في نفسه وفي الآفاق من حوله فلا يأتيه متاع الحياة خاليا من المعنى أو منفصلا عن التبصرة والذكرى.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ (طه: ٥٣، ٥٤)

﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها ﴾.

﴿ إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غشاء، فيطفو على

(١) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير.

وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان . هذا الزبد نافش راب منتفخ . ولكنه بعد غشاء . والماء من تحته سارب ساكن هادىء . ولكنه هو الماء الذى يحمل الخير والحياة . . كذلك يقع في المعادن التى تذاب لتصاغ منها حليّة كالذهب والفضة ، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص فان الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء . ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا . ولكنه بعد زبد أو خبث ، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه . والحق يظل هادئا ساكنا . وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات . ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيى والمعدن الصريح ينفع الناس ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾^(١) .

واشارة «كذلك» إلى التمثيل السابق في جملة ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال . وهو المقصود بهذا التذييل والاشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الافهام إلى حكمته وحكمة التمثيل وما فيه من المواعظ والعبر^(٢) .



(١) في ظلال القرآن .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.